

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ
مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ
صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِهَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِّضُ بَعْضَهَا
عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

« صدق الله العظيم »

[الرَّعْد : الآية ٤]

انتهينا في مقالنا الماضي من الكلام على فرائض الإسلام : فرائض العبادات وفرائض الواجبات التي لا بد منها لبقاء أمة الإسلام بين أمم الصدارة والقيادة على هذه الأرض ، لأن الإسلام قوة وعزة وفتح ونور وريادة وقيادة .

واليوم نتكلم عن واحدة من خاصيتين يتميز بهما الإسلام . هما العلم ، ثم العمل ، وستحدث عنه في فصلنا التالي إن شاء الله .

والآيات التي جعلناها بداية لكلامنا عن الإسلام والعلم أتيت بها من سورة الرعد ، وأنت إذا قرأت السورة ملياً وجدت أنك تستطيع أن تسميها سورة العلم

أو سورة العلوم على اعتبار أننا اصطلاحنا في يومنا هذا على أن لفظ العلوم بالجمع يراد به علوم المعاش من فيزياء وكيمياء وزراعة وطب وصيدلة وكل ما ينفع الناس في دنياهم ، ومن الواضح أن صلاح دنيا الإنسان مدخل إلى صلاح دنيا الإنسان مدخل إلى صلاح أخراه كما رأينا عندما تكلمنا عن قوله تعالى في سورة الزمر : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ فهنا يرتبط الوجود الأرضي بالوجود الفردوسي ويتلازمان ويصبحان شيئاً واحداً ، وعبرة (فنعم أجر العاملين) في آخر الآية تدل على أن الذين أورثهم الله الأرض عملوا فيها أحسن العمل فتيبوا بعد ذلك من الجنة حيث يشاءون .

وفي الناس من يقولون إن المراد بالعمل هنا هو العبادات ، وهذا معقول ومقبول ، ولكن الله سبحانه خفف أمر العبادات المفروضة في الإسلام ، فجعلها لا تستغرق من وقت الإنسان إلا أقله ، وإذا أنت أخذت الصلاة مثلاً وجدت أن كل صلوات اليوم المفروضة لا تستغرق أكثر من نصف ساعة في مجموعها فماذا تفعل ببقية ساعات النهار والليل ؟

الذي تفعله هو النظر في الكون على نور القرآن ، فتجد أن الله سبحانه قد وضع لك في هذا القرآن ما هو كفيلاً بأن يحرك ذهنك إلى العمل ، ويفتح أمامك أبواب النشاط ، ويدفعك إلى التفكير للكشف والوصول إلى ما تضمنه الأرض من منابع الخير ومصادر القوة ، والآيات التي ذكرناها إنما أنزلها الله سبحانه لكي يحرك بها أذهاننا في طريق العلوم وأسرارها حتى تتفتح أمامنا أبواب الكشف ، وكلما وصلنا إلى كشف انفتحت به أمامنا سبل العمل والرزق ، وإلا فلماذا يلفت الحق سبحانه أنظارنا إلى هذه الظاهرة الفريدة ، ظاهرة وجود قطع من الأرض متشابهة وغير متشابهة تنبت صنوفاً من الثمر مختلفاً أنواعه كالأعشاب وصنوف الزروع والنخيل . وقد تتجاوز شجرتان : تين وزيتون ، والتين حلو ، والزيتون

مر ، وهما يخرجان من أرض واحدة بأمر الله ، ونحن في هذه الحالة مطالبون بأن نفتح الأرض ونقلبها وندرس النوى والحب لكى نصل إلى ما يأذن الله لنا في علمه من الحقائق التى تعيننا على تجويد الزرع والإكثار من الشمر وحمايته وحماية الأرض وهنا علوم كثيرة : فيزياء وكيمياء وأحياء ، ومن العلوم تتفرع علوم ، وكل علم يأتينا بخير كثير ، وبالحير الكثير تنمو ثرواتنا وتقوى وتعز بلادنا ، وكل هذا يأتينا من العلم ، ولهذا فإن الله سبحانه يختم الآية بقوله : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ أى يستخدمون عقولهم ، واستخدام العقل هو أساس القوة في هذه الأرض ، وخلال القرن الخامس عشر الميلادى وما تلاه ، تعلم أهل الغرب كيف يستخدمون العقل للوصول إلى أسرار القوة ، وأنت عندما تقرأ ما كتبه إبرازموس وجاليليو جاليلى وميكلانجلو وفرانسيس بيكون وجون لوك وديفيد هيوم وآدم سميث وجون ستيورات ميل تشعر أنك أمام رجال تنبها إلى قوة العقل وقدرته على الكشف ، وهذا هو الحال مع الموسوعيين الفرنسيين من أمثال ديدرو والامبير الذين قاما على تحرير الموسوعة الفرنسية فيما بين سنتى ١٧٧٥ و ١٧٨٢ م ، وتلك الموسوعة الفرنسية حافلة بكل ما كان يعتبر في ذلك الزمان جديداً ، ولكنها اليوم أثر تاريخى ، أما أهميتها الكبرى فهى أنها كانت من الميادين الكبرى التى تعلمت أوروبا فيها كيف تفكر أو كيف « تعقل » إذا استعملنا مصطلح القرآن ، وهذا العقل قاد أوروبا إلى ما أذهل عالماً مثل عبد الرحمن الجبرتي المصرى الذى بهرته مكتشفات الفرنسيين ومخترعاتهم التى عرضوها عليه وعلى غيره من علماء مصر فى عصره ، فقال : وهذه أمور لا تفهمها عقول أمثالنا ، مع أنها كلها كانت مخترعات بسيطة ناتجة عن تجارب بدائية فى الفيزياء والكيمياء والميكانيكا ، ولو أننا قرأنا القرآن قراءة تدبر وذكرنا أنه خير دليل للمسلم للسعادة فى الدنيا والآخرة ، لو أننا فعلنا ذلك لما سبقنا من الأمم سابق فى ميادين العلوم والمعارف .

وفي سورة الرعد هذه من الاستحاثات على التفكير والتجريب في ميادين العلوم ما كان كفيلاً بأن يجعلنا رواد العلوم في تاريخ البشر ، وقرأ قول الحق سبحانه في هذه السورة : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجِينَ اثْنين . يَغْشى الليلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد ١٣ / ٣] .

ثم تلا ذلك الآيات التي ذكرناها آنفاً ، وهنا يقول الحق سبحانه ، إن هذه آيات لقوم يتفكرون ، وهناك يقول إنها آيات لقوم يعقلون ، والفكر هو وظيفة العقل ، ويعنى ذلك أننا عندما نقرأ أمثال هذه الآيات فإن علينا أن نتعمل ونفكر لكى نتنبه إلى ما فيها من إشارات إلى أسرار الكون ، لأن الله أعطانا العقل لنفكر به ، والفكر ميزة الإنسان الكبرى وسلاحه الذى يمكن له من حل مشاكله ومواجهة معضلات الحياة .

فأنت مثلاً إذا قرأت هذه الآيات وسألت نفسك : ما الذى يجعل شجرة التين تخرج ثمرأً حلواً ، فى حين جارتها شجرة الزيتون تخرج ثمرأً مرأً ، مع أن الأرض واحدة والماء واحد ؟ فهنا يجيب ذهنك : إنها البذرة أو الشتلة ، فلنتنظر فى أمر البذرة ومم تتكون . هنا يبدأ التحليل والبحث ، وهذا هو ما فعله واحد من أكابر النباتين فى تاريخنا العلمى وهو ابن العوام الأشبيلي . فقد كان هذا الرجل عالماً نباتياً بارعاً ، أفنى عمره كله يفحص الأرض والتربة ويحللها على قدر مامكتته الظروف التى كان يعيش فيها فى أشبيلية فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى . وعندما تقرأ كتاب النبات من تأليفه تحس بالاحترام لهذا العقل العلمى المرتب المنظم الذى دفع صاحبه إلى تحليل التربة ، فكان يأخذ بضعة من تراب الأرض ويضعها فى الماء ويحركها ليرى ماذا يذوب فى الماء منها ، ويقول : هذه تربة حلوة وتلك تربة مالحة . وهذه تصلح لزراعة كذا وتلك لكذا ، وفى كتابه من التوجيهات للزراع ما لا يقل فى شيء عما تقرأ فى كتب

الزراعة اليوم .

قلت لك إن سورة الرعد يمكن أن تسمى سورة العلم أو العلوم لكثرة ما فيها من الآيات التي تحرك ذهن قارئها إلى التفكير في الخلق وأسرار الله فيه ، وكلها أسرار لا تلبث أن تنكشف عن حقائق إذا نحن ملكناها زدنا قوة ، وأقرأ قوله تعالى في نفس السورة :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَمَا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد ١٣ / ١٧] .

فهنا نجد مثلاً من أسلوب القرآن في فتح أذهاننا على أسرار القوة في خلق الله ، هنا نرى السيل الرابي المتدفق الذي يحمل كل شيء في طريقه ، فهو إذن قوة يمكن استخدامها في توليد الطاقة بدليل ذكر الله بعد ذلك لما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع ، فكان الله يقول لك : فكر في العلاقة بين قوة الماء المتدفق وقوة النار ، وهذه الإشارة تكفي لكى تدفع الذهن إلى التفكير في القوى المحركة للأشياء في هذه الأرض ، وهنا أذكرك ببدايات الكشف العلمية الكبرى كالكهرباء مثلاً ، فإن بنيامين فرانكلين الأمريكي كان من هواة تطيير طائرات الورق التي يطلقها الصبيان في الهواء ويمسكون بها بخيط طويل ويمجرون بها لكى تزداد في الهواء ارتفاعاً ، ولكن فرانكلين كان يصنع طائرات ورقية كبيرة يمسكها بخيط من السلك الرفيع ، فكان إذا اكفهرت السماء وتلبد الجو أحس بتيار كهربائى خفيف فى أصابعه فعلم أنها كهرباء الجو التى تصل أحيانا إلى قوة الصواعق ، ألفت تحزنى إلى إشارة الله التى ذكرناها إلى إنشاء الله سبحانه للسحاب وتسبيح الرعد بحمده . . ألفت ترى فى هذا كله ما كان يمكن لعالم

مسلم من الاهتداء إلى سر الكهرباء والتفكير في تطويعها لخدمة الإنسان ؟ وهذا هو الذى فعله بنيامين فرانكلين ، فقد انتقل بعد ذلك إلى إنشاء الكهرباء من عجلتين تدوران في اتجاهين متعاكسين ، وتوصل بالفعل إلى الحصول على تيار كهربائى قصير المدى ، ثم جاء غيره من بعده فبدأ من حيث انتهى ، واتصل بالبحث والكشف بعد ذلك حتى وصلنا إلى ما ترى من الدور العظيم الذى تقوم به الكهرباء فى حياتنا اليوم .

ذلك أن الله سبحانه أعطى الإنسان العقل لكى يستخدمه فى حل مشاكله فى حياته على الأرض ، والعقل قوة كبرى ذات طاقات مختلفة ، فالعقل يحفظ وأنت عندما توجه قوة عقلك إلى الحفظ والاستظهار فأنت تقلل من قدرته على الحركة والاستنتاج والاستكشاف ، لأن العقل يتحول عند ذلك إلى عضلات ضخمة كما يحدث لجسد الذى يدرّب جسده على رفع الأثقال ، ومن هنا فإن العقل الحافظ غير قادر على الحركة السريعة النشيطة التى هى ميزة العقل المفكر والمبتكر ، وتدريب الذهن على الحركة السريعة المبتكرة هو خير استخدامات الفكر ، وهذا هو الذى ينبغى أن تفعله المدرسة ، ولهذا فإننا نقع فى خطأ جسيم عندما ندفع أولادنا إلى استظهار الكتب والمذكرات ليجتازوا الامتحانات وهم يجتازونها فعلاً ولكن أذهانهم تثقل وتجمد وتصبح عاجزة عن الابتكار .

ومذهب القرآن الكريم فى حث الذهن على التفكير والتفطن يأخذ طريق الحركة السريعة ، فهو كما رأيت فى آيات سورة الرعد يدعونا إلى العقل أى إلى استخدام العقل والتفكير فى شئون الكون لنصل إلى أسرار القوة فى خلق الله ، وله فى ذلك طرائق جميلة ، إذا نحن تنبهنا إليها زدنا إيماناً بهذا القرآن العظيم ، وتأمل قوله تعالى فى سورة فاطر :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا

الوانها ومن الجبال جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ .
ومن الناس والدواب والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ
عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿ [فاطر ٣٥ / ٢٨ - ٢٩] .

فهنا في هذه الآية ذكر للكثير من إبداعات الله في خلقه ، هنا ذكر للمطر
الذى يهبط على الأرض ويخرج الثمرات ذات الألوان المختلفة ، وهنا ذكر لألوان
الجبال ما بين أبيض وأحمر داكن وأسود ، وهذه الألوان تنأت من عروق المعادن
وأكاسيدها ومركباتها ، وهنا ذكر لعظم خلق الله من أصناف البشر والدواب
والأنعام ، وبعد ذلك نقرأ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وتسأل
لماذا جاء ذكر العلماء هنا ؟ لقد سبق أن قلت أن لا شيء في القرآن يأتي مصادفة
أو دون تقدير دقيق ، لأن القرآن كلام الله ، وكل شيء فيه بحساب ، ومادام
هذا هكذا فلا بد أن الله أتى بذكر العلماء هنا وقرر أنهم هم الذين يخشون الله لكى
ينبه أهل الفكر إلى تأمل خلق الله واستخراج الأسرار منه ، فإذا وقفوا عليها زادت
خشيتهم لله لما يرون من بديع خلقه ، فهنا توجيه لأهل الفكر إلى النظر والبحث
ليكونوا علماء ، والعلماء هم أعرف للناس بجلال خلق الله ، ولهذا فهم أشد
الناس خشية له . وكان ينبغي أن تكون هذه الآية لافتة لأذهان أهل العلم للاتجاه
نحو البحث في الجبال مثلاً سعيّاً وراء استكشاف المعادن واستخراجها من
الجبال وتخليصها من مركباتها ، والمعادن كما نعرف أساس الصناعات العظيمة ،
والمسألة كانت يحى شيئاً فشيئاً ، وكل صاحب علم يكتشف شيئاً ، ثم تحى
غيره ويضيف شيئاً ، وهكذا يصرح العلم وتتوافر للأمة أسباب القوة ، وفي
تاريخنا العلمى كثيرون نظروا وبحثوا وكشفوا ، ولكن العلم تراكم ، وأبو الريحان
البيرونى الذى وصل إلى نظريات علمية بعيدة يقف وحده في تاريخنا الفكرى ،
ولو أنه وجد من يأخذ ما وصل إليه ويدرسه ويجرى التجارب للتأكد منه ثم يزيد
عليه ما استطاع لكان حالنا اليوم غير الحال ، لأن الذين وصلوا إلى أسرار العلوم

وقواها من أهل الغرب ووصلوا ببلادهم إلى الصدارة لا يتميزون عنا في شيء ، بل نحن ملمومون لأن الله أعطانا هذا القرآن العظيم وفيه مفاتيح القوة كلها ، وكنا حريين أن نصل بها إلى قيادة الدنيا لو أننا قدرناه حق قدره ، وعرفنا كيف نفيد منه ونصل عن طريقه إلى قيادة أمتنا في معارج القوة والخير .

فالقرآن الكريم إذن مفتاح العلوم لأنه مفتاح العقول ، وعندما نقرأ قول الحق سبحانه في سورة يونس : ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس ١٠ / ١٠١] .

يتقرر في أذهاننا أن الإسلام دين العلم ، فهنا ربط واضح بين الإيمان والعلم ، فإذا لم ينظر الإنسان في السماوات والأرض ويتفكر في روائع خلق الله وما تظمه من حقائق علمية فلن تغني عنه الآيات والنذر ، ولن يصل إلى الإيمان الصحيح قط ، لأنك إنما تؤمن بالله لما ترى من بدائع صنعته . ولن تصل إلى معرفة بدائع الخلق إلا إذا تأملت وفكرت لتبتفتح أمامك مغاليق أسرار القوة في ذلك الكون الذي تعيش فيه ، حقاً إن القلب المؤمن مؤمن ، ولكننا في أمة الإسلام في حاجة إلى أهل العلوم الذين يتأملون ويفكرون ويستكشفون لكي يصلوا بأمة الإسلام إلى درجات القوة والرفعة ، واقرأ معي قوله تعالى في سورة الأعراف :

﴿ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف ٧ / ١٨٥] .

أجل . فإن الإنسان يكفيه أن يتأمل في ملك السماوات والأرض وما خلق الله فيها من عجائب المخلوقات لكي يؤمن بالقرآن ورب القرآن ، فإذا آمن ودخل في أمة الإيمان كان عليه بعد ذلك أن يمضي مفكراً متديراً في بدائع خلق

الله لكى يزداد إيماناً ، وهو فى أثناء ذلك يكشف ويضيف بعلمه إلى قوة عالم الإسلام ، فيعز أهل عالم الإسلام بالعلم ، وهذه العزة تجتذب الناس إلى دين الله لأن الناس يحبون القوة والعزة ، وكان رسول الله ﷺ يعلم ذلك ، وطوال حياته لم يدخل وسعاً فى تقوية أمة الإسلام ، واقرأ قول الحق سبحانه فى سورة الروم :

﴿ أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ .

[الروم ٣٠ / ٨]

وهنا يلفت الله أنظارنا إلى عجائب خلق أنفسنا ، لأننا نادراً ما نفكر فيها ، ولابد لنا من أن نفكر فيها ، ثم ننظر فى الكون لنرى أنه سبحانه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، أى بغاية الدقة ، ثم إن هذا الخلق كله مخلوق بأجل مسمى أى بحساب زمنى مقرر ، فكل شئ أجله وميعاده ، وإذا لم يتفطن الإنسان إلى جلال ذلك كله لم يشعر بروعة لقاء الإنسان لربه يوم الحساب .

ولست أريد أن أقول بذلك إن القرآن الكريم كتاب علم أو علوم وحسب ، لأن القرآن أعظم من ذلك وأرحب مدى ، فهو كتاب كل شئ فى هذا الوجود ، ولكنى أريد أن أقول إن الاكتشاف والاختراع ، لأن كل أسرار القوة مودعة فيها حولنا من خلق الله ، وعلينا أن نسعى إلى الوصول إليها وتملك أسرارها لأن أمة الإسلام لن تكون جدية بالإسلام إلا إذا كانت قوية عزيزة ، لا يغلبها من البشر غالب بفضل قوتها وتماسكها واستحواذها على أسرار القوة .

ولله سبحانه أساليب شتى فى تحريك الأذهان لا يتفطن إليها إلا من قرأ القرآن قراءة تفكير وتأمل عميق ، فإن البارى سبحانه يأتى فى القرآن بآيات تشير كلها إلى عجائب الخلق وهى ساكنة لا تتحرك مثل قوله تعالى :

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [الغاشية ٨٨ / ١٧ / ٢٢] .

فهذه كلها معجزات كونية يدعونا الله سبحانه إلى أن نتأمل عجائبها وهي ساكنة ، نعم إنها كلها تتحرك ولكننا مدعوون هنا إلى أن نتأملها ونتفكر في عجائبها وهي ساكنة أمام أبصارنا ، ويذكر الله هنا الجمل وهو عجيبة أى عجيبة فقد ارتبط الجمل بالعربي حتى إن أحد لا يشك في أن جزيرة العرب هي موطن الجمال ، وما أبعد هذا عن الحقيقة ، فإن مهد الجمل كان في جبال الأنديز في أمريكا الجنوبية في نواحي جمهورية بيرو ، هنا نجد إلى يومنا هذا توأمة الجمل وهما اللاما والألباكا ، واللاما على وجه الخصوص جمل بدون سنام ، وهي منع الالبكا تعيش على سفوح جبال الأنديز وفي الهضاب العالية منها ، وهناك عثر العلماء على أول ما عثروا عليه من آثار الجمال الأولى ، وكانت الجمال هناك صغيرة في حجم اللاما (ينطق الناس اسمها هناك اللياما) والالبكا وهي حيوان يشبهها ولكن فروه غزير الشعر ، والجمل بطبعه حيوان نفور أى يميل بطبعه إلى الانفراد بنفسه ، وكان شديد الخوف إذ لا سلاح له ، فازتفع بنفسه في أعالي جبال الأنديز ، ثم اتجه إلى الشمال في رحلة طويلة قضى فيها ملايين السنين ، ولكن الباحثين عثروا على حفائره على طول طريقه ، فقد انتهى من أمريكا الجنوبية ودخل أمريكا الوسطى وقطعها حتى وصل إلى صحراء نيفادا في الولايات المتحدة ، وكان ذلك قبل ملايين من السنين ، وهناك في الصحراء تبجح الجمل واطمأن ، فقد وجد البيئة الآمنة التي كان يطلبها : صحراء واسعة لا يعمرها من كواسر الحيوانات أو من الناس أحد ، فقضى ألوف السنين ظهر فيها خفه الغليظ الذي يمكنه من التوغل داخل رمال الصحراء ، وهناك أيضاً تطورت معدته ونشأ له شيئاً فشيئاً جهاز اختزان الماء ، والجمل لا يخزن الماء في

معدته ماء ، بل هو يتحول إذا شربه إلى مادة هلامية تحتزن في شرايينه في كل جسده ، وهو إذا احتاج إلى الماء استخرج منها ما هو بحاجة إليه ، أما ما يقال من أن من يريد أن يقطع أرضاً صحراوية أخذ جمالاً وسقاها الماء حتى تمتلئ أجوافها ثم دخل بها الصحراء ، فإذا احتاج إلى الماء ذبحها ليشرب الماء الذى فى بطونها فغير صحيح ، وخالد بن الوليد لم يقطع بجيشه صحراء الشام الواسعة بعرضها لأن قطعها كان يحتاج إلى أسبوعين ، وإنما هو سار من عين التمر إلى الشمال محاذياً نهر الفرات حتى وصل إلى أضيق ساحة من ساحات الصحراء ، فقطعها ثم انحدر إلى الجنوب حتى وصل إلى بصرى .

ونعود إلى الجمل فنقول إنه عاد يسير إلى الشمال حتى وصل ألاسكا ، ومن هناك عبر إلى آسيا - سيبيريا - ثم أخذ ينحدر إلى الجنوب حتى وصل صحراء جوبى شمال الصين ، وهناك فى عمق الصحراء استكمل تكوينه وقضى مئات الألوف من السنين ، وكبر حجمه ، ونشأ منه صنف ذو سنامين ، وهى الجمال التى يسميها العرب بالبختية ، ونما حجمه ، وهناك استأنسه الناس واستخدموه ، وهاجرت جماعة من ذات السنام الواحد إلى شمال الهند ، ثم إلى جنوب العراق ، ووصلت إلى أبواب جزيرة العرب ، وهناك استأنس الناس الجمل ، ودخلوا به الصحراء أيام العرب العاربة ، وبالجمل استطاع الإنسان أن يسكن الصحراء ويعيش فيها ، لأن الجمل إذا وجد الماء شرب دفعة واحدة ما يقرب من مائة وخمسين لتراً من الماء ، وهو لهذا يستطيع الصبر بدون ماء فوق السبعة عشر يوماً ، وهو حيوان قوى صبور يستطيع أن يسير أياماً طويلة وبنام وهو سائر على حذاء الحادى ، وكل ما فيه مفيد : وبره صوف ناعم كالحرير ، ولحمه طرى ، ولبنه وفير . وهو أنيس حسن العشرة ، ثم إن حضارة البدو كلها تقوم عليه فهو يأكل أقسى حشائش الصحراء ويعطى لبناً وافرأ يعتمد عليه البدو فى حياتهم ، رأيت إذن لماذا قال الله : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ

خلقت ﴿؟ ثم يلفت الحق سبحانه نظرنا إلى السماء وما تضمنه من العجائب ، والسماء في اللغة هي كل ما علاك وأظلك ، ولكنها في خلق الله سماوات كثيرة ، وانظر إلى السماء في سواد الليل وتعجب لهذه القبة العظيمة وما فيها من شمس ومجرات ومساحات سود يظن أنها مواضع شمس ماتت وانحلت وذابت كواكبها وأقمارها وبقي مكانها خالياً ، وكل شمس من تلك التي تراها إنما هي مجموعة شمسية بكواكبها التي تدور على مثال مجموعتنا الشمسية هذه ، ومن يدري فربما كان في كل مجموعة شمسية أرض وفي كل أرض ناس مثلنا ، ومن يدري فربما كان في كل أرض إنسان مثلك .

ثم يلفت الله نظرنا إلى هذه الأرض التي سطحت وما هي في الواقع مسطوحة ، ولكن هكذا تبدو لنا بجبالها وبحارها ووديانها وما يعيش فيها من إنسان وطائر ودابة وسمكة وحشرة ، والقرآن لا يلفت نظرنا إليها لنراها ، فها هي ذى ماثلة أمام أعيننا ، ولكنه يدعونا إلى التأمل في عجائبها والنظر في بديع صنعها والبحث عما يمكن أن يخرج لنا منها من الخيرات .

وفي سورة البقرة يرينا الله عجائب حركة الكون ، في الآيات السابقة نرى روعتها وهي ساكنة ، وهنا نرى إبداع الكون المتحرك .

﴿ إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة ٢ / ١٦٤] .

فها هنا جانب أو جوانب من حركة هذا الكون الذي لا يسكن ، حركة يبعثها الله بأمره فهي متصلة منذ برأ الله الكون إلى أن يطوى الأرض وما عليها ، والحكمة الكبرى في قوله تعالى : ﴿ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ . والمهم

هنا هو العقل والتفكير . منهما يخرج الإنسان بالمعلومات التي يديرها في ذهنه ، ومن ذلك تتأتى المكتشفات والمخترعات ، لأن الإسلام دين العلم ، وأنت مهما تقرأ في القرآن وتتدبر فيما تقرأ فأنت في عالم علم وابتكار واختراع .

إن بعض أذكىاء معاصرنا ينظرون في القرآن ثم يقولون : هنا يذكر الله نظرية التطور ، هنا إشارة واضحة إلى كروية الأرض ، وهذا كله طيب ومشكور ولكنه كان يكون مشكوراً أكثر لو كنا نحن على هدى القرآن أصحاب هذه الكشف لا مجرد متحدثين عنها .

